جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

الملتقى الوطني : اتجاهات التفسير في التراث التفسيري الجزائري

– معالم ومقاصد –

الدكتورة : آمال جعبوب

أستاذ محاضر– أ –

مداخلة بعنوان :

" آراء الشيخ مبارك الميلي في التفسير من خلال كتابه رسالة الشرك ومظاهره ".

ملخص :

إن استعمالات الشيخ مبارك الميلي للتفسير في كتابه رسالة الشرك ومظاهره تنبي عن غزارة علمه في التفسير وقوة استدلالاته التفسيرية ، وتبين أن أدواته أدوات مفسر نحرير ،مما يستوقف الباحث عند آراء الشيخ في التفسير والتي ضمنها كتابه رسالة الشرك ومظاهره ،فلابد وأن يكون الشيخ قد صرّح أو لمح ببعضها ،خاصة وقد غلب عليه توظيف التفسير بشتى مناهجه في الاتجاه الإصلاحي الديني والاجتماعي ،ويهدف البحث إلى استخراج هذه الآراء صريحها ومفهومها من خلال كتابه رسالة الشرك ومظاهره ،وكذا الوقوف على عنايته بمناهج التفسير المختلفة في كتابه لخدمة مقصده من التفسير ،وخلص البحث إلى أن الشيخ مبارك الميلي يعد من المفسرين العاملين بالتفسير واتحدت آراءه ومناهجه التفسيرية لخدمة مقصد واحد وهو العودة بالأمة للفهم الصحيح للقرءان الكريم ،وتحقيق مقصد القرءان الكريم الأول وهو توحيد الله تعالى .

الكلمات المفتاحية : التفسير ، مبارك الميلي ، الآراء ، الاتجاه الإصلاحي ،مقاصد .

Abstract:The uses of Sheikh Mubarak El-Mili for Quran interpretation in his book The Message of Shirk and its Manifestations indicate the abundance of his knowledge in interpretation and the strength of his interpretive inferences, and it turns out that his tools are the tools of a free interpreter, which makes the researcher stop at the views of the Sheikh in

Quran interpretation, which are included in his book The Message of Shirk and its manifestations, so the Sheikh must have stated or He alluded to some of them, especially when he was dominated by the use of interpretation in its various approaches in the religious and social reformist direction. Sheikh Mubarak El-Mili is considered one of the interpreters working in the interpretation, and his opinions and interpretive approaches united to serve one goal, which is to return the nation to the correct understanding of the Holy Qur'an, and to achieve the first purpose of the Holy Qur'an, which is the unification of God Almighty.

Keywords: Quran Interpretation, Mubarak El-Mili, opinions, reformist direction, purposes.

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد:

إن من أعلام الجزائر الأفذاذ الشيخ مبارك الميلي الذي سخر نفسه وعلمه خدمة للدين والوطن ،فبرزت جهوده الإصلاحية على الأرض من خلال دروسه في التفسير والعقيدة التي حارب من خلالها دسائس الاستدمار في المجتمع ،كما برزت جهوده العلمية من خلال كتبه ومقالاته الدورية ومنشوراته العلمية ،ولأن الشيخ أخذ العلم عن علماء ومشايخ في التفسير كالعلامتين الطاهر بن عاشور والشيخ ابن باديس فلابد أن يكون للشيخ آراء في التفسير أخذها عنهم وعن غيرهم من العلماء وربما كان له تعقبات ومخالفات في مسائل بثها في منشوراته العلمية ،فما هو الجانب التفسيري في كتابات الشيخ مبارك الميلي ؟ وما هي مواقفه في علم التفسير في منشوراته ؟ وما مدى تأثره بعلماء التفسير في عصره لاسيما وأن الشيخ عمل على الإصلاح الديني للمجتمع الجزائري في تلك الحقبة ، بإعادة ربط الناس بثوابتهم وإحيائها فيهم وفق مسار جمعية العلماء المسلمين آنذاك ؟

لذلك اخترت البحث في جهود الرجل في علم التفسير من خلال كتابه رسالة الشرك ومظاهره ،وهو كتاب لا يخفى دوره الإصلاحي في الجانب العقدي ولابد للشيخ أن ينتهج مناهج مختلفة في تفسيره للآيات القرءانية ،و يحاول البحث الوقوف على أهم خصائصه وكذا آرائه فيه وفق الخطوات التالية :

المبحث الأول : نبذة عن الشيخ مبارك الميلي وجهوده ومكانة التفسير في كتابه رسالة الشرك ومظاهره :

- **المطلب الأول : ترجمة الشيخ مبارك الميلي وجهوده العلمية والإصلاحية :**

هو الشيخ مبارك بن محمد بن رابح بن علي إبراهيمي الميلي نسبة لمدينة الميلية التي نشأ بها ، ولد سنة 1898 م ، و قيل سنة 1896 م بقرية أولاد مبارك من قرى الميلية ، وكان جده من أعيان قريته البارزين عرف بتمسكه بالدين والغيرة عليه محبا للخير باذلا أسبابه ،وكان قد التمس في شخصية حفيده مبارك الميلي قوة ونجابة وذكاء فاعتنى به وكفله بعد وفاة والديه وهو صغير ، وعمل على تربيته ورعايته أحسن رعاية ، وحبب إليه الدين وغرس فيه العقيدة ،وعوّده الأخلاق الحميدة ، ووجهه إلى الله والعمل ابتغاء مرضاته ،فنشأ عزيز النفس رافع الرأس واثق الخطى ،وكان هذا من أسباب نبوغه العلمي [1].

حفظ القرءان الكريم منذ صغره ، وانتقل إلى مدينة ميلة وتلقى العلم على يد شيخها " **الشيخ محمد بن معنصر الميلي**[2] " الذي كفله علميا فدرس عنده المرحلة الابتدائية ، لينتقل بعدها إلى مدينة قسنطينة حيث تلقى علوم الشريعة على يد **الشيخ عبد الحميد بن باديس** فكان أعظم تلاميذه المنتفعين به والعاملين معه ، ثم ارتحل بعدها لتونس أين أتم دراسته العليا بجامع الزيتونة ،ودرس عند أبرز شيوخها **كالطاهر بن عاشور** ، وتخرج منها سنة 1924 م ، ليعود بعدها لأرض الوطن أين عمل ابتداء معلما بالمدرسة القرءانية بقسنطينة ، ثم معلما ومشرفا على مدرسة الأغواط ، التي حقق فيها نجاحا وقبولا متزايدا بين أهلها مما أخاف السلطات الفرنسية التي ألزمته المغادرة ،وبعد انتقال وتنقل بين الولايات استقر أخيرا بمدينة ميلة التي أسس بها جامعا لأداء الصلوات الخمس ، كما أسس جمعيتي " النادي

---

[1] – ينظر ما تقدم في : أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى عام 1975م : محمد علي الدبور : 3/ 12-13 و ص: 28 ، ط1 ، مطبعة البعث ، 1978 م .

و : تاريخ الجزائر الثقافي : أبو القاسم سعد الله :ص: 409 ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998م .

[2] – هو : محمد بن الظريف بن محمد بن محمد و لقبه (بن معنصر) و(الميلي) نسبة لمدينة ميلة ولد سنة 1870م ، من أعلام الجزائر ، وهو نسيب الشيخ مبارك الميلي ، قتل سنة 1928م . ينظر ترجمته في : أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى عام 1975م : محمد علي الدبور : 47/3 ،

الإسلامي " و"جمعية حياة الشهاب " فأحيا بهما النشاط العلمي والإصلاحي بالمنطقة وأثّر بالناس تأثيرا كبيرا جعل السلطات الفرنسية تقر بأن الشيخ يقدم تعليما حيّا وواسعا [1].

وعلى الرغم من كون الشيخ عمل مجاهدا بعلمه في الميدان تعليما وتدريسا وخطابة ، إلا أنه جاهد كذلك بقلمه فسخره لنشر العلم والدعوة ومحاربة الشرك والتخلف بالمجتمع من خلال مقالاته الدعوية بمجلات جمعية العلماء المسلمين كالمتنقد والشهاب والبصائر[2]، كما أورث الأمة سفرين عظيمين في فنين من العلوم ،الأول منهما كتابه "تاريخ الجزائر الحديث " أحيا به تاريخ وطنه بعد أن كان مبعثرا ، واستطاع من خلاله التأريخ لأمة الجزائر ،وإثبات وحدتها وشخصيتها وأثرها الفعال في عصر الإسلام وقبله وفي عهد العثمانيين ، فكان كما قال ابن باديس : " إنه بكتابه هذا أحيا أمة ، وإذا كان من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا ، فكيف بمن أحيا أمة كاملة ؟ أحيا ماضيها وحاضرها [3]" .

وأما الثاني فكتابه " رسالة الشرك ومظاهره " عالج من خلاله أهم أسباب انحطاط المسلمين وتخلفهم ، وتوفي الشيخ بسبب مرض السكري في 25 صفر 1364هـ الموافق لـ 3 فيفري 1945 بميلة وحضر جنازته الآلاف من محبيه ومنهم الشيخ البشير الإبراهيمي الذي قال في رثائه : " حياة كلها جد وعمل ، وحي كله فكر وعلم ، وعمر كله درس وتحصيل ، وشباب كله تلق واستفادة ، وكهولة كلها إنتاج و إفادة ، ونفس كلها ضمير وواجب ، وروح كلها ذكاء ، وعقل كله رأي وبصيرة ، وبصيرة كلها نور وإشراق ، ومجموعة خلال سديدة وأعمال مفيدة ،قلّ إن اجتمعت في رجل من رجال النهضات ، فإذا اجتمعت هيأت لصاحبها مكانة من قيادة الجيل ،ومهدت له مقعده من زعامة النهضة [4]" .

المطلب الثاني : مكانة التفسير عند الشيخ مبارك الميلي :

أولا : مكانة التفسير في دروس الشيخ مبارك الميلي :

اعتنى الشيخ مبارك الميلي بعلم تفسير القرءان الكريم تعلما وتعليما وتدريسا ،فقد حظي الشيخ خلال مساره العلمي بالتتلمذ على كبار أئمة التفسير في الجزائر وخارجها ،فتلقى أسس هذا العلم على يد رائد

---

[1] – تاريخ الجزائر الثقافي : أبو القاسم سعد الله : 7/ 411-413 .

[2] – جُمعت مقالاته في كتاب "آثار الشيخ مبارك الميلي " من قبل الباحث أبو عبد الرحمن محمود و صدر في ثلاث مجلدات عن دار الرشيد للكتاب ، الجزائر .

[3] – تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك بم محمد الميلي : ت : محمد الميلي ، ص: 10 ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب .

[4] – آثار الإمام البشير الإبراهيمي : أحمد طالب الإبراهيمي : 2/ 183 ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، 1997 .

النهضة الإصلاحية بالجزائر ومفسرها "الشيخ عبد الحميد بن باديس" ،والذي كان أثره فيه كبيرا ،وعدّ عنده من تلاميذه النجباء الذين فقهوا عن الشيخ علمه ونهجه الإصلاحي ،مما جعل الشيخ ابن باديس يستعين به ويحرص على الاستفادة من علمه في تعليم طلبة العلم في المدرسة القرءانية بقسنطينة ،وكذا الاستفادة من قلمه بالكتابة بجرائد الجمعية .

واكتمل المسار التكويني في علم التفسير للشيخ مبارك الميلي بالدراسة على شيخ شيخه مفسر الزيتونة وإمامها "الشيخ الطاهر بن عاشور" حيث أتم دراسته العليا ، فكان الشيخ مبارك الميلي موفور الحظ إذ تتلمذ على أكبر مشايخ علم التفسير في تلك الحقبة وهو ما أثر في مساره العلمي والعملي تأثيرا كبيرا ، إذ بدا واضحا أثر الشيخين في اتجاهات الشيخ مبارك الميلي العلمية فاشتغل بتدريس العلوم الشرعية لطلبة العلم بالمدارس القرءانية والجوامع ،ومنها دروس تفسير القرءان الكريم وكان يقدمها للطلبة ولعموم الناس بمدينته ميلة وبغيرها من المدن الجزائرية أين ارتحل للتدريس بعدد من مساجد الولايات الشرقية كجيجل وبجاية ،وسطيف وغيرها ،وشارك بعضها مع شيخه الشيخ عبد الحميد بن باديس [1].

وقد أظهرت تلك الدروس طول باع الشيخ مبارك الميلي في علم التفسير ،وغزارة علمه ،وبعد نظره في مقاصد الآيات وحكمها ،وسهولة عباراته وتبسيط معانيه ،فقد ورد في أخبار دروسه التفسيرية الكثير من الإشادة والإثراء بعلم الشيخ وبراعته ، من ذلك بعض تقارير مراسلي جمعية العلماء المسلمين لبعض دروس الشيخ بالمساجد ومنها :

- تقرير الأستاذ مقيدش – أحد تلاميذ الجمعية – جاء فيه :" ....لقد أبهرنا بغزير معلوماته ،وطول باعه في فن التفسير ،جمل تخرج من فيه تتساقط كاللآلئ ،ولفظ عذب فيه السحر الحلال ،ومعان يفهمها الجاهل " .

[1] – من هذه الدروس ما قدمه الشيخ مبارك الميلي بالمسجد الجامع بمدينة العلمة بسطيف يوم الثلاثاء 13 ربيع الثاني 1351هـ الموافق لـ 16 أوت 1932 م ، ألقى فيه الشيخ ابن باديس درسا في تفسير سورة العلق ، و أعقبه الشيخ مبارك الميلي بتفسير آيات من سورة الأنعام ، قال فيه الأستاذ محمد العابد الجيلالي واصفا درسه : " وقد غاص واستخرج اللآلئ وذهب في تحليل هذه الآيات إلى أبعد غاية تحليلا تاريخيا علميا لم يترك معه أصلا من أصول الشرك إلا أقلعه ،ولا أثرا من آثاره إلا نقضه بقوة الحجة وسطوع البرهان " .

ينظر توصيف لهذا الدرس وغيرها من دروس الشيخ مبارك الميلي في التفسير والتي قدمت تقارير عنها في جرائد جمعية العلماء المسلمين واعتنى بجمعها الدكتور مراد خنيش في مقال بعنوان : دروس الشيخ مبارك بن محمد الميلي في التفسير في رحلاته إلى المدن الجزائرية – توثيقا وتوصيفا وتحليلا : ص : 106 ، مجلة الشهاب : المجلد 8 ، العدد 01 (2022) ، ص ص 99-126 .

- وقوله عن درس الشيخ في تفسير سورة الفاتحة : " فاستخرج لهم خيرا كثيرا ما عرفوه من قبل من هذه السورة المباركة ...وبالجملة فإنه يكفي أن أقول :إنه صور لهم القرءان إجمالا بما فيه في هذه السورة الكريمة ،كل ذلك بأسلوب عذب وعبارة سهلة تبلغ إلى أذهان الناس بغاية السرعة " .
- ومنه تقرير مكاتب النجاح قال فيه عن تفسيره قوله تعالى :﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾(البقرة 176) :" فأبان بحكمة أسرار هذه الآية الكريمة وكشف الغطاء عن مكنوناتها وما تحتويه من أصول البر ..." [1].

ثالثا : مكانة التفسير في مؤلفات الشيخ مبارك الميلي :

أما على صعيد الكتابة والتدوين فقد بدا جليا تبحر الشيخ مبارك الميلي وسعة اطلاعه في علم التفسير من خلال مقالاته وكتاباته ،وإن لم يخص التفسير بمؤلف مفرد إلا أن الشواهد التفسيرية في كتابات الشيخ مبارك الميلي وكثرة نقوله عن أئمة التفسير تُنبيك عن فهمه الواسع لأصول التفسير وقواعده ،وتمكنه من أدوات علم التفسير ،وإدراكه لمقاصده ، مما يجلي شخصية المفسر عند الشيخ مبارك الميلي ، ويبدي النزعة التفسيرية في تحليلاته وتدليلاته وشواهده وعباراته ،كما تأثر الشيخ مبارك الميلي بالاتجاه الإصلاحي في التفسير عند شيخه ابن باديس ، فكان التوجه الإصلاحي الاجتماعي هو الغالب في مسلكه التفسيري ، بالإضافة إلى نقوله الكثيرة عن رائدي الاتجاه الإصلاحي في التفسير في تلك الفترة الشيخين محمد عبده ورشيد رضا.

وحَرص الشيخ مبارك الميلي في كتاباته على بيان أهمية علم التفسير ،والتأكيد على أن العودة للقرءان الكريم هي أصل كل نجاح وفلاح ،وأنه لا سبيل للتحرر من التخلف والعبودية والابتداع إلا بالعودة للفهم السليم للقرءان الكريم و مدارسة قصص السابقين والاعتبار بما ذكره القرءان فيهم ، فنجده مثلا يؤكد في كتابه رسالة الشرك و مظاهره على ذلك فيقول : " ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان، ونبيه خاتم النبيين، وكتابه خاتم الكتب، وهذه الأمة خاتمة الأمم، وهي من جنس تلك الأمم الماضية؛ تقسو قلوبها كما قست قلوبهم، وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم، وتعصي كما عصوا، وتبتدع كما

[1] – ينظر : دروس الشيخ مبارك الميلي ...: مراد خنيش : ص: 118 .

ابتدعوا؛ فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصر ما عاب به من قبلنا عليهم، ويدعنا سدى من غير دليلٍ يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم قبلنا؟! لقد أحاط ربك بكل شيء علماً، ووضع لكل حال حكماً، والقرآن الذي فضح من قبلنا هو الذي يفضحنا، والقرآن الذي هدى من تقدمنا هو الذي يهدينا..... أن حماية الدين لا تكون إلا بالعلم، وأن أصل علم الدين الكتاب والسنة[1] " .

ويتضح إعمال التفسير عند الشيخ مبارك الميلي في كتاباته كذلك من خلال كتابه "رسالة الشرك ومظاهره " ،حيث استمد علاجه لظاهرة الشرك من القرءان الكريم ،وأدواته في تفسير الظاهرة والبحث عن حلول لها أدوات مفسر للقرءان الكريم ،مما يجعل كتابه رسالة الشرك ومظاهره بمثابة تفسير موضوعي لظاهرة الشرك بالبحث في أسبابها وظواهرها ونتائجها انطلاقا من القرءان الكريم ،بل إن الشيخ مبارك الميلي يعرض مقدمة تاريخية للشرك استنادا بما وصفه الله عز وجل في كتابه فيورد قصص السابقين مع الشرك ،ولا يكاد يعرض مسألة من المسائل المتعلقة بالشرك كالتمائم والرقى والطيرة والخوف والولاية وغيرها إلا ويعرض قول الوحي فيها قبل إسقاط الظاهرة على المجتمع ،ثم يسرد حلول القرءان لها و يبين إرشاداته وهداياته فيها ،مستشهدا بأقوال المفسرين وأهل التأويل ومعارضا الأقوال والآراء بعضها ببعض . وبالجملة لا يكاد يخفى على الدارس لكتابه النزعة التفسيرية الإصلاحية التي طغت عليه، وبروز شخصية المفسر في الشيخ مبارك الميلي ،الأمر الذي يدفع الباحث لدراسة نهجه في التفسير واستخلاص أدواته والوقوف على أهم آرائه التفسيرية من خلال كتابه رسالة الشرك ومظاهره .

المطلب الثالث : شبه الطرقيين حول دروس التفسير وردود الشيخ مبارك الميلي عليهم :

كانت دروس التفسير في المساجد هي سلاح الشيخ ضد الفكر الطرقي والصوفي الذي عشش في فكر الجزائريين دهرا بمباركة للمستعمر الفرنسي ،والذي وجد فيه غذاء لاستمرار العبودية ،والرضا بالدونية والانقياد تحت مسمى الرضا بالقدر والتسليم لأمر الله تضليلا وإضلالا ،فعملا جاهدين على التضييق على الشيخ مبارك الميلي وإيقاف دروسه وإلزامه مغادرة الجامع والتنقل من مدينة لأخرى ، بل بلغ الحد حتى إلزامه الإقامة الجبرية لعزله عن الشباب وعموم الناس ،فكان التحرر من فكرهم وإبطال ضلالاتهم أولى خطوات التحرر من استعمار المستدمر ،يقول الشيخ مبارك الميلي عن علاقة الطرقيّين بالمسدمر الفرنسي : " لقد ثقل على من خفت موازينه – من الطرقيّين و القبوريّين و المرابطين – نصح المشفقين

[1] -رسالة الشرك ومظاهره : 84-85 .

،وساءهم تحذير العلماء الناصحين ،فكادوا لهم مع الحكومة كي يوقعوا في قبضتها ،فسامت الحكومة العلماء بالترغيب والترهيب ،وعاملتهم بالشدة العملية ،واللين القولي ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران 146)[1] " .

وكان مما واجهه الشيخ مبارك الميلي في صراعه ضد الفكر الطرقي فكرة محاربة الطرقيين لتفسير القرءان الكريم واقتصارهم على دروس الفقه وشرح مختصر خليل ،يقول الشيخ مبارك الميلي : " ثم حاول أولئك المستاءون صرف العامة عن علمائها ،فلم ينقبضوا عن الإرشاد ،وأشد ما كانوا يثيرون عليهم الضجات عند تفسير الآيات[2] " .

وكانت شبهتهم في ذلك : " أن كلام الله أجل من أن يُفسّر ،وإن الواجب الاقتصار على المألوف من المؤلفات ،وإن الرجوع إلى الكتاب والسنة ضلال وهلاك ،وخسارة أبدية ، وشقاوة سرمدية [3]" .

وقد عمل الشيخ مبارك الميلي وغيره من علماء جمعية العلماء المسلمين على الرد على شبههم وضلالاتهم من القرءان وبتفسير القرءان الكريم ، وكان مدار شبه الطرقيين في تفسير القرءان الكريم **استعظام تفسير القرءان واستصعابه و الاقتصار بفن دون غيره وحتى القول بورود النهي عنه** .

فأما دعوى **استعظام التفسير** وتمنع السابقين من أهل العلم الخوض فيه والتنزه من القول في القرءان فيقول الشيخ مبارك الميلي في رده : " أما منعهم من تفسير القرءان الكريم ،فيستدلون له بما يروُون عمن لا يعرفون من أن صوابه خطأٌ ، وخطأه كفرٌ ،ويؤكدون ذلك بحكاياتٍ في امتناع مشاهير الشيوخ من الإقدام على التفسير ، مثل كذبهم على الشيخ عبد الرحمن الثعالبي – دفين الجزائر – أنه كان إذا ألح عليه تلاميذه في ذلك قال لهم : " لنخرج إلى الشاطئ حتى لا ينقض علينا جدارٌ ،ولا يخر علينا سقفٌ " ، يحكون هذه الحكاية وهو مفسر مشهور،ويعظمون كلام الله هذا التعظيم ولا يعظمون حدوده وأحكامه ... وكل هذا نبذ لكتاب الله ،وتعطيل لأحكامه ،واتباع لسنن اليهود الذين حكى الله عنهم ذلك بقوله : سُورَةُ ٱلْبَقَرَةِ

---

[1] – رسالة الشرك وظاهره : مبارك الميلي : 69 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 69 .

[3] – رسالة الشرك ومظاهره : 79-71 .

﴿۞وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُول مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّق لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيق مِّنَ ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 101) [1] " .

وأما **دعوى الاقتصار** بالفقه دون التفسير وأن الاشتغال بالتفسير صرف عن مدارسة كتب المتقدمين وهجران لها وأن بينها وبينه ما بين الضرتين (رضى هذي يحرك سخط هذي) ،ثم آثرها وهي الفرع عليهما ، وهما الأصل – أي الكتاب والسنة – فيقول عنهم : " وتلك غباوة مغبتها شقاوة[2] " ،ثم يرد الشيخ مبارك الميلي قولتهم التي سماها بالخاسرة بأن الدعوة إلى التفسير شاملة لغيرها من الكتب والعلوم وأن الاقتصار على الفقه دون التفسير دعوة للفرع وإهمال للأصل فيقول: " ونحن لا نرى منافاة بين تفهم الكتاب والسنة ودراسة مؤلفات العلماء، وليست الدعوة إليهما تزهيداً في تراثنا من أسلافنا، بل هي حث على الانتفاع بذلك التراث القيم، لأن الناظر فيهما يحتاج إلى النظر فيما كتب عليهما وما استنبط منهما وما هو وسيلة إليهما، وقد يتعرف بذلك إلى علوم كونية مجملة فيهما، هذا إلى تحصيل ملكة البيان من أسلوبهما، وإحياء طريقتهما في الهداية، فتكون الدعوة إليهما دعوة إلى الأصل والفرع معاً، أما الدعوة إلى كتب الفقه مثلًا خاصةً كما يريد المعارضون؛ فهي دعوة إلى الفرع وإهمال للأصل، والنهم الذي لا يشبع من طلب العلم لا يتسع لنهمه غير الكتاب والسنة، والقهم غير الشهوان لا يجمل به أن يقيد قدرة غيره بعجزه، ولا يزينه أن يتخذ من ضعفه مقياساً لقوة القوي [3] " .

ولعل مقصدهم من ذلك حصر الناس في الفتوى والمسائل الفقهية وصدهم عن فهم القرءان الكريم وإدراك خطاب الله تعالى لعباده في القرءان وبيان هداية القرءان للناس ،خوفا من تعرية القرءان الكريم لهم وفضح ضلالاتهم بلسان القرءان الكريم ،يقول الشيخ مبارك الميلي في رده على شبهتهم : " وأما دعوتهم إلى الاقتصار على المألوف من المؤلفات ،فيُلبسونها لباس التعظيم للعلماء المتقدمين ،والاحتياط على العوام في الدين ،وما هي إلا صدٌ عن هداية القرءان ،وفرارٌ من كشفه لمساويهم ،ما عرفوا الكتب التي يدعون يدعون إليها ،ولا عُرفوا بالغيرة على الدين حتى يحتاطوا للعامة ،وما هم في ذلك إلا مردِّدون

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 71-72 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 77 .

[3] – رسالة الشرك ومظاهره :77 .

لصدى فرعون حيث قال : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر 26) وما أشبه الليلة بالبارحة[1]".

ثم نقل كلاما عن محمد عبده بين فيه تأثر المشتغل بالتفسير بهداية القرءان وأثره في الإرشاد الاجتماعي وأنه الفقه الحقيقي الذي يجدر الدخول فيه، فيقول : " وإن في القرءان من التهذيب ،ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ،ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة ،وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية ،ما لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ،وهو ما أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي ،ولا يوجد هذا الإرشاد إلا في القرءان ،وفيما أخذ منه – كـ "إحياء علوم الدين " – حظٌ عظيمٌ من علم التهذيب ،ولكن سلطان القرءان على نفوس الذين يفهمونه ، وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساميه فيه كلام ،كما أم الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ،ولم يُفصح عنها عالم ولا إمام [2]" .

و يؤكد الشيخ مبارك الميلي ما ذكره محمد عبده من واقع عمله بالتفسير فيقول : " و إنَّا لنشهد الله – وليس وراء الله للمرء مذهب – أنا قد جربنا ،فوقفنا على صحة حكم هذا الإمام ،وصدق وصفه [3]".

وأما **دعوى استصعاب التفسير** ،فيرد عليها بقوله : " ولعل هنالك من يستصعب هذه الطريق، بأن طباعنا العربية قد حالت، وسلائقنا في ذوق الكلام العربي قد فسدت؛ فأنى لنا بفهم كلام ربنا؟!

فنقول له : إن من عانى غموض المتون وتعقيد المختصرات يستسهل القرآن الذي يسره الله للذكر، ويجد في تعلم اللغة وعلومها ما يرد عليه سليقة سلفه، أو يكسبه إياها إن لم يكن عربي الأصل، ونقص السليقة المكتسبة يجبره ما كتبه أئمة التفسير [4]".

و أما **دعوى ورود النهي عن التفسير فيرده** بما ورده من قول للعلماء في المسألة فيقول : " وقد ورد النهي عن التفسير؛ فأخرج ابن جرير وأبو داود والنسائي والترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، أنه قال " :من قال في القرآن برأيه(أو: بما لا يعلم) ؛ فليتبوأ مقعده من النار [5]" .

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 73 .

[2] – تفسير المنار 1/ 20 .

[3] – رسالة الشرك ومظاهره : 74 .

[4] – رسالة الشرك ومظاهره : 74–75 .

[5] – أخرجه ابن جرير في تفسيره 71/1 ، وأحمد في مسنده : 2069 ، و الترمذي : 2950 .

وقد حمل العلماء هذا النهي على التفسير بالرأي والهوى، وصوره القرطبي في " تفسيره " بصورتين " : إحداهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه، فيصرف القرآن إليه؛ تصحيحاً لغرضه .وثانيتهما :أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بالغرائب، ولا جري على مقتضى قوانين العلم[1] ".

وعلل ابن كثير تخطئة من أصاب في التفسير برأيه، فقال " :لأنه تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر، لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس عن جهل، فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم [2]" .

المبحث الثاني : آراء الشيخ في التفسير في كتابه رسالة الشرك ومظاهره .

لم يخض الشيخ مبارك الميلي في مسائل التفسير تقعيدا وتنظيرا ،ولم يذكر موقفه منها بشكل صريح ، وذلك لأن الشيخ مبارك الميلي اشتغل بإعمال التفسير في كتابه رسالة الشرك ومظاهره أكثر من التنظير والتقعيد لمسائله ، وإن كان قد غلب على كتابه منهج التفسير الموضوعي كونه يتناول مسألة الشرك بالله من خلال القرءان الكريم ، إلا أن الشيخ انتهج مناهج مختلفة في التفسير خدمة لهذا الموضوع كالمنهج التحليلي والنقدي والاجتماعي والإصلاحي ،كما تنوعت مشارب التفسير في كتابه ما بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور والتفسير اللغوي وحتى المقاصدي ، وعليه كانت آراء الشيخ مبارك الميلي في التفسير ومناهجه وأنواعه مخبوءة في المعاني التفسيرية التي حملها كتابه، ومفهومة من ألفاظه وعباراته ، فاحتاج استخراجها إلى تحليل كثير من كلامه ،وقل التصريح بها إلا في بعض المواضع ، ومن هذه الآراء .

المطلب الأول : موقف الشيخ من التفسير بالرأي ومعنى التأويل عنده :

لم يرد عن الشيخ مبارك الميلي قول صريح في التفسير بالرأي لكنه أشار إلى هذا النوع من التفسير في بعض كلامه ،ومنه ما جاء في كتابه رسالة الشرك ومظاهره في معرض رده عن دعوى النهي عن التفسير ومحمله قوله : " وقد ورد النهي عن التفسير ،وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي عن جندب رضي الله

[1] – الجامع لأحكام القرءان : 1/ 33 .

[2] – تفسير ابن كثير : 1/ 12 . وينظر كلام مبارك الميلي في : رسالة الشرك ومظاهره : ص: 72-73 .

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قال في القرءان برأيه فأصاب فقد أخطأ " وجعله الترمذي غريبا ،وطعن غيره في بعض رواته ،وزاد رزين " ومن قال برأيه فأخطأ ،فقد كفر[1] " .

وقد حمل العلماء هذا النهي على التفسير بالرأي والهوى ،وصوره القرطبي في تفسيره بصورتين : " إحداهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه ،فيصرف القرآن إليه تصحيحا لغرضه .

وثانيهما : أن يتسارع إلى تفسير القرءان بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بالغرائب ،ولا جري على مقتضى قوانين العلم [2] ".

وعلل ابن كثير تخطئة من أصاب في التفسير برأيه ،فقال : " لأنه تكلف ما لا علم له به ،وسلك غير ما أمر به ،فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر ،لكان قد أخطأ ،لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار ،وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ،لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ ، والله أعلم[3]" .

تحليل القول :

إن تحليل كلام الشيخ مبارك الميلي ومن نقل عنهم يجد أن الشيخ يعتبر التفسير بالرأي نوعان :

الأول : منهي عنه وهو المذموم ،وهو الصريح من قوله ،ويصرفه إلى معنى من يقول في القرءان بهوى أو بغير علم ،وهو ظاهر الخطأ وإليه ينصرف النهي في الحديث ،وقيد الرأي المذموم بكونه تأويل كلام الله انطلاقا من ظاهر اللغة العربية من غير مستند نقلي أو سماعي يوضح غريب القرءان ،أو اطلاع على معنى تناقله العلماء بينهم ،فيكون الرأي المذموم في القرءان كل رأي لم ينبني على علم سابق بالآية ،وهذا العلم سواء كان متعلقا بما ورد في الآية من أحاديث أو آثار أو أقوال لأهل العلم ،أو هو ما وصل له من غير دليل ،ولا استدلال من طريق الأثر[4] .

---

[1] – رواه الترمذي : 2652 .

[2] – ينظر : الجامع لأحكام القرءان : 33/1 .

[3] – تفسيرالقرءان العظيم : ابن كثير : 1/ 12 . ، وينظر كلام الشيخ مبارك الميلي في : رسالة الشرك ومظاهره : 74 .

[4] – وافق الشيخ مبارك الميلي قول من تقدمه من العلماء في تقسيم التفسير بالرأي إلى مذموم ومحمود ، كما وافقهم في تقييد المذموم منه بالهوى والجهل أو القول بغير علم . ينظر : مقدمة في أصول التفسير : ابن تيمية : 18-19 ، و التفسير والمفسرون : محمد حسين الذهبي : 1/ 185-200، و التحرير والتنوير : 1/ 30-32 .

هذا صريح قوله ،أما مفهوم قوله أن هناك **رأيا محمودا** في القرءان **وهو النوع الثاني** : ويفهم منه جوازه ،وحده أن يكون الرأي مستندا لعلم ،أو كل رأي تولد من دليل نقلي [1].

ومن خلال استقرائنا لكتاب رسالة الشرك ومظاهره يتضح جليا أن الشيخ مبارك الميلي جمع بين مناهج تفسيرية مختلفة ومنها التفسير بالرأي ، وهذا من خلال :

أولا : إعماله التفسير بالرأي وانتهاجه أسلوب المعارضة لأقوال المفسرين :

من المواضع التي أعمل فيها الشيخ مبارك الميلي التفسير بالرأي ما نقله من ردود على الفخر الرازي في بعض أقواله التي أعمل فيها العقل وتأول فيها بعض آي كتاب الله ،ومنها قوله تعالى في سورة الجن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَداً﴾ (الآية 26) فخصص عموم الآية وجعل الغيب قسمان ،وأن ما ورد في آي الجن ليست عامة في كل الغيب ،وإنما خاصة بما لا دليل عليه فقال : " وَعِنْدِي أَنَّ الْآيَةَ لَا دَلَالَةَ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ مِمَّا قَالُوهُ وَالَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ قَوْلَهُ :عَلى غَيْبِهِ لَيْسَ فِيهِ صِيغَةُ عُمُومٍ فَيَكْفِي فِي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ أَنْ لَا يُظْهِرَ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى غَيْبٍ وَاحِدٍ مِنْ غُيُوبِهِ فَنَحْمِلَهُ عَلَى وَقْتِ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُظْهِرُ هَذَا الْغَيْبَ لِأَحَدٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُظْهِرُ شَيْئًا مِنَ الْغُيُوبِ لِأَحَدٍ [2] " .

ولخص الشيخ مبارك الميلي أدلة الفخر الرازي في تأويله فقال : " وتأول آية سورة الجن على التخصيص، وصرفها عن العموم لكل المغيبات، واستدل لتأويله بأربعة أمور:

الأول :صدق بعض أخبار شق وسطيح الكاهنين قبل الإسلام، وشيوع ذلك عنهما في العرب.

ثانيها :اعتبار جميع الملل والأديان لعلم التعبير الذي فيه الإخبار بالمغيبات.

ثالثها :صدق أخبار مغيبة وقعت من الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملك شاه من بغداد إلى خراسان.

رابعها :تحقق إلهامات وقعت من الأولياء وغيرهم من السحرة، ومطابقة بعض الأحكام النجومية.

---

[1] – ينظر : فصول في أصول التفسير : مساعد الطيار : 66/1-68 ، والتحرير والتنوير : 28/1 فما فوق ،التفسير والمفسرون : 202/1 .

[2] – مفاتيح الغيب : 678/30 .

هكذا رتب أدلته، وحقه إدخال الدليل الثالث في الأول؛ لشمول الكهانة لهما، ثم تفصيل الرابع إلى دليلين، لأن أحكام النجوم غير الإلهامات؛ فلا يجمعهما دليل واحد[1] " .

ثم رد الشيخ مبارك الميلي على أدلة الفخر الرازي بأدلة عقلية فقال : " وليس في أدلته تلك ما يفيد تخصيص الآية: أما أولاً، فإنها معارضة بكثرة الظواهر التي تخص الله بعلم الغيب، وذلك يفيد العموم؛ كما قدمنا عن " الموافقات ، وأما ثانياً؛ فإن تلك الوجوه التي جلبها ليست من علم الغيب : أما الكهانة، فيختلط حقها بباطلها، وذلك يمنع من إطلاق العلم عليها، وكذلك ما لم يضبط من أحكام النجوم، وما ضبط منها بالحساب لم يبق في طي الغيب عند العارفين بقواعده ، وأما التعبير والإلهام؛ فهما من غير المعصوم غير معصومين من الخطأ، فلا يسميان علماً ما داما في الغيب، فإذا تحققا في الخارج، وصدق عليهما وصف العلم؛ ارتفع عنهما حكم الغيب، فإلهام الولي ورؤياه لا يتناولهما علم الغيب، وهذا بخلاف رؤيا الأنبياء وإلهاماتهم، فإنها حق يصدق عليها علم الغيب بإعلام الله لهم ، وقد جعل رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رؤيا الأولياء جزءً ضعيفاً من النبوة، نازلاً عنها بخمسة وأربعين جزءً، فقال : « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّة » [2]" .

ونجد الشيخ مبارك الميلي يرد ما ذهب إليه الفخر الرازي بأدلة عقلية تنم عن قوة استنباط واجتهاد ،فيرد الدليل بالدليل ،والحجة بالحجة ،ولم يمنعه ذلك من أن يحسن الظن بإمام المفسرين ويلتمس له العذر فيما ذهب إليه ،فالرازي قال قولته لتوهمه انتفاء الكرامة للأولياء إن حُمِل معنى الآية على العموم فخصصها ،وسبب ذلك تأثره بردوده على الزمخشري ،يقول الشيخ مبارك الميلي :" الباعث على تأويل المتأولين لنصوص اختصاص الله بعلم الغيب: وقد عد بعض المتكلمين في كرامات الأولياء رؤاهم وإلهاماتهم في علم الغيب، وكثرت عندهم، حتى قامت مقام التواتر المعنوي، فلم يجدوا بدّاً من تأويل نصوص الدين في اختصاص الله بعلم الغيب، والحق إبقاء تلك النصوص على عمومها، وإخراج ما هو من قبيل الإلهام والرؤيا عن علم الغيب، وصرف ما يراد منه علم الغيب من الحكايات عن باب الكرامات بما يناسبها من وجوه الصرف ، هذا تقويمنا لكلام الرازي في تفسير سورة الجن الذي نقض به ما صرح به في تفسير سورتي البقرة وآل عمران ،والذي أوقعه في هذه المناقضة وأنساه ما أصَّله أولاً ولوعه بمناقضة الزمخشري؛ فإنه ادعى في " كشافه " أن آية الجن مبطلة للكرامات، ولكن ابن المنَيِّر في "

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 193 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 193-194 . ينظر تخريج الحديث في صحيح البخاري : 6983 .

حاشيته " عليه أقام حيفه من غير أن ينقض ما أصله القرآن، فقال " :ادعى عامّاً واستدل خاصّاً، فإن دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها، والمدلول عليه بالآية إبطال اطلاع الولي على الغيب خاصة [1]" .

ثانيا : الجمع بين الأدلة العقلية والنقلية في تحليل الأقوال التفسيرية والردود على المفسرين :

وفي رده على ما جاء في نفي الشفاعة من الآيات يرد ردا عقليا مبناه **الاجتهاد والقياس والنظر** في الأدلة ، فبعد أن استجمع الآيات الدالة على الشفاعة وشروطها على وفق ما ذكر في القرءان ، ثم أعقبها بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث ، جمع الأدلة العقلية على أن نفي الشفاعة عن قوم في الآخرة مبدأه نقلي وعقلي لأن قياس شفاعة الخالق على شفاعة المخلوق قياس فاسد فقال : " محمل ما جاء في نفي الشفاعة: فمن تعلق بالمخلوق وتقرب إليه ليشفع له عند الله، وظن تعلقه ذلك تعظيماً لذلك المخلوق يرضاه الله؛ فقد آذنه الله ورسوله بخطأ ظنه وفساد تقربه، وأن في ذلك التعلق تنقيصاً لله يتنزه عنه ،ذلك أن الجاهلين بالله من أهل الكتاب والمشركين يقيسون أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، وأحكام الله على أحكام الملوك؛ فإذا كان المجرم في الدنيا قد ينجو من سطوة القانون وقضاء الحاكم عليه بشفاعة وجيه عنده؛ كان المجرم في الآخرة قد ينجو من عذاب الله بشفاعة نبي أو ملك أو ولي ، **وهو قياس فاسد نقلاً وعقلاً:**

أما النقل، فما تقدم من نفي الشفاعة لمن رجوها من غير الله وبلا سببها المشروع ، **وأما العقل؛** فإن كل مؤمن بالله يعتقد أنه محيط بكل شيء علماً، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يفعل ما يفعل حكمة ورحمة لارغبة ولا رهبة، وملوك الدنيا يجهلون كثيراً من أحوال قصورهم؛ فضلًا عما نأى عنهم، ويريدون الشيء ثم يرجعون عنه، ويرغبون في إرضاء أعيان دولتهم ويرهبون إسخاطهم.

والشفاعة إلى الله دعاء يفعل الله عقبه ما سبق في علمه وإرادته أن سيفعله، وقبولها من الشفيع تكرمة له ورحمة بالمشفوع، وأما الشفاعة إلى ملوك الدنيا؛ فهي إعلام لهم بما لم يكونوا يعلمون من براءة المتهم أو علاقته بالشفيع، وتغيير لإرادتهم العقوبة بإرادة العفو، والباعث لهم على التشفيع الرغبة في موافقة الشفيع أو الرهبة من مخالفته، وكل ذلك ينادي بقصور علمهم وضعف إرادتهم وعجزهم عن الاستقلال بتدبير مملكتهم، وهذه سيما الحدوث الشاهدة بانفراد الله بالكمال المطلق "[2] .

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 194-195 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 305 .

تنوع مصادره في التفسير بالرأي : يكثر الشيخ مبارك الميلي النقل عن المفسرين بالرأي ،وله في كتابه رسالة الشرك ومظاهره العديد من النقول عن أئمة هذا الفن وعلى رأسهم الفخر الرازي ،ويليه في المرتبة الزمخشري وعلى الرغم من رأيه الاعتزالي إلا أنه ينقل عنه حال الاتفاق وحال الاختلاف مع أئمة الأثر ،بل وينقل عنه الراجح من الأقوال في التفسير إن ثبت عنه الموافقة ، كقوله :

" وبين المفسرون للآية استعاذة العرب بالجن التي هي من معنى العبادة، فقالوا- واللفظ للكشاف " :- إن الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسايره، وخاف على نفسه، قال :أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه (يريد: الجن وكبيرهم) ؛ فإذا سمعوا بذلك؛ استكبروا، وقالوا :سُدنا الجن والإنس ،فذلك رهقهم ، أو فزاد الجن والإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم [1]" .

المطلب الثاني : موقف الشيخ مبارك الميلي من التفسير بالمأثور ونماذج عنه :

لا يكاد يخلوا باب أو مبحث من كتاب رسالة الشرك ومظاهره إلا ونجد الشيخ مبارك الميلي يؤكد على ضرورة العودة للأصلين الكتاب والسنة في العلوم ،و وجوب تعميم أسلوب القرءان والحد من أسلوب المتكلمين ،لأن أسلوب القرءان أبسط في العبارة وأيسر في الفهم من غيره [2]، من ذلك مثلا قوله في باب الرجوع في بيان الشرك إلى الكتاب والسنة : " الحث على الأصلين الكتاب والسنة: فالداعي إلى الكتاب والسنة وتفهمهما إنما هو داع لتحقيق كلمتي الشهادة ،ولهذا تجد فيهما وفي كلام سلف الأمة الحث على تعلمهما واتباعهما وتحكيمهما عند النزاع، والتحذير من مخالفتهما وارتكاب ما أنكراه على من تقدمنا من مشركين وكتابيين [3]" .

وتبدوا أهمية التفسير بالمأثور عند الشيخ مبارك الميلي من خلال :

أولا : عنايته بالتفسير بالمأثور والدعوة لإعماله والتثبت في المروي :

فنجد الشيخ يؤكد في كل مرة على ضرورة العودة لنصوص الكتاب والسنة في تفسير الظواهر، وعدم التأثر بالحكايات والتثبت في المرويات ،لأن عقول البشر قاصرة عن فهم أسرار الكون ،من ذلك قوله عند رده على ابن خلدون : "وكلام ابن خلدون في بعض فصول الفصل السادس من " مقدمته " لم

---

[1] - رسالة الشرك ومظاهره : 339 .

[2] - ينظر : ص: 50-52 .

[3] - رسالة الشرك ومظاهره : 63-64 .

ينظر فيه إلى الناحية الدينية، وإنما تأثر فيه بالحكايات التي ظاهرها عدم اختصاص الله بعلم الغيب مما هو منتشر بين العامة أكثر مما هو معلوم للخاصة، فحاول تعليلها تعليلًا فلسفيّاً، فكان بذلك متطلعاً لفهم أسرار الطبيعة، لا متقيداً بتقرير أحكام الشريعة ، ونحن نعتقد أن عقول البشر قاصرة عن الإحاطة بأسرار الخليقة، وأن التسليم لنصوص الكتاب والسنة أولى من التخرّص في تعليل مظاهر الكون بما يخالف تلك النصوص [1]" .

ويهتم الشيخ مبارك الميلي كثيرا في عرضه للتفاسير أن يعتمد منهج التفسير بالمأثور فيبتدئ تفسير القرءان بالقرءان أولا ،ومنه مثلا في تفسيره لمعنى النسك في قوله تعالى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ (البقرة 128) ،يريد متعبداتنا ،وغلبت المناسك في طاعات الحج ،قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ (البقرة 200) ،وغلب النسك على الذبيحة يجبر بها نقص الحج قال: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ اَوْ صَدَقَةٍ اَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة 196) ،والنسيكة كذبيحة وزنا ومعنى ،وتكون بمعنى السبيكة من الفضة ... [2]" .

ثم يعقبه بالأحاديث المفصلة للآيات بقوله "**ما ورد فيها من أحاديث ومرويات** "، ويدقق في مدارسة الأحاديث رواية ودراية ،ويقارن بين المرويات ويبين درجتها ،من ذلك مثلا في تفسيره معنى التوسل أورد ما ثبت فيه من أحاديث وبين كلام العلماء فيها رواية ودراية فقال : "الكلام على ما ورد في التوسل بالجاه من ناحية الرواية: وللعلماء في الكلام على أمثال هذه الآثار جهتان :جهة السند والرواية، وجهة المعنى والدراية: فأما الرواية؛ فإنه لم يخرج هذه الآثار من يلتزمون الصحة فيما يروون غير الحاكم في " المستدرك "،وقد عاب عليه الحفاظ عدم التزامه الصحة فيه، لاشتماله على الضعاف والواهيات والموضوعات، كما يعلم من كلام الذهبي ..... وحديث عبد الملك بن هارون في سنده انقطاع، وفيه وفي أبيه مقال، ضعفهما الدارقطني، ووصف عبد الملك بالكذب والوضعِ، وقال ابن حبان في أبيه هارون " : لا يجوز أن يحتج به، منكر الحديث جدّاً ..... وفي " تفسير القرطبي " عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد، أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف: 23) وحكى هو والبغوي وابن

---

[1] - 195 .

[2] - 133 .

كثير في المراد من الكلمات أقوالًا أخر ليس فيها ما يوافق رواية عمرو بن ثابت المتقدمة ، وهذا القدر كاف في تعرف حال تلك الروايات، وأنها بين الضعيف والموضوع، ليس شيء منها صالحاً للاحتجاج "[1] .

ثانيا : المعارضة بين المرويات والجمع والترجيح بينها وتقديم أقوال الصحابة :

فقد يعارض الأحاديث والآثار بعضها ببعض على نهج المحدثين ، ويجمع بينها إن استدعت الحاجة ، ثم يرجح عند الاستحالة ،ويحرص على تقديم أقوال الصحابة وترجيحها ،وقد وقع له ذلك حال تفسيره لمعنى التبرك ومعارضته بين الآثار الثابتة عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ،والتي توهم التعارض فيما بينها ، ليخلص في النهاية إلى نفي التعارض فقال : " الجمع بين ما جاء في التبرك : فأنت ترى من هذا إثبات بعض الأخبار للتبرك ونفي بعضها له، حتى إن عمر وابنه لم يتواردا على التبرك بآثاره – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ومنزلتهما عظيمة في العلم والدين ومحبة أكرم المرسلين.

ثم التبرك حيث أثبت في روايات الإثبات؛ فإنما المقصود منه طلب الزيادة في ثواب الطاعة .....والتبرك على هذا الوجه عندي معقول لأن ذكرى الأنبياء والصالحين ورؤية آثارهم مما يزيد الموحدين خشوعاً وتعريفاً بتقصيرهم في طاعة خالقهم، فتخلص بذلك عبوديتهم لله تعالى، وحينئذ تكون الإثابة على عبادتهم أسمى، وقبول دعائهم أرجى، وطمعهم في تنزل الرحمة أقوى، وروايات نفي التبرك غير معارضة لروايات إثباته بهذا المعنى، لأن النافين إنما يقصدون الاحتياط على عقائد العامة أن تزيغ كما سبق في توجيه مخاطبة عمر للحجر الأسود، وأنه قطع الشجرة خوف الفتنة، وأنه حذرهم أن يهلكوا بتتبع الآثار هلاك أهل الكتاب [2] " .

كما يحرص الشيخ مبارك الميلي على بيان أوجه الاتفاق بين الآيات والأحاديث ، من ذلك قوله في معنى الدعاء : " تأمل تعجيز النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لجميع الأمة على اجتماعها عن إسداء الخير أو الإيذاء بالشر من غير أن يستثني ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو وليّاً صالحاً، أو شجرة عتيقة، أو صخرة ضخمة، وهذا التعميم في التعجيز هو ما تنادي به الآيات السابقة وغيرها، حيث صرح بأن خيار خلقه الذين يبتغون التقرب منه ويرجونه ويخافونه لا يملكون كشف الضر عن أحد ولا تحويله [3] " .

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 282-283 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 148-149 .

[3] – رسالة الشرك ومظاهره : 263 .

وقوله في معنى الوسيلة :" اتحاد معنى الوسيلة في الكتاب والسنة: وإذا تأملت معنى الوسيلة في الآيتين والحديث، وجدته متقارباً متلازماً، أصله القربة والطاعة التي ينشأ عنها القرب من الله في دار كرامته[1] " .

ثالثا: اعتماده مصادر التفسير بالمأثور : تنوعت مصادره في التفسير بالمأثور بين كتب التفسير بالمأثور وكتب المرويات ،ولعل من أهم الكتب التي نقل عنها المعاني التفسيرية كتاب جامع البيان للطبري ومعالم التنزيل للبغوي وتفسير القرءان العظيم لابن كثير ،والمحرر الوجيز لابن عطية ،والدر المنثور للسيوطي ،وغيرها ،كما يحرص على نقل كلام أئمة الحديث والفقهاء والأصوليين في الآيات ،من ذلك مثلا ما جاء في باب الدعاء : " وعن النعمان بن بشير؛ أنه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قال : " الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ [2]" ، ثم قرأ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60) ، قال في " كشف الخفاء " :" هو عند: ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في " الأدب المفرد" ، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال الترمذي :حسن صحيح ، وتقرير الربط بين صدر الآية وعجزها هو أن الدعاء أخص من العبادة وهي أعم؛ فمن استكبر عنها، استكبر عنه، وهذا تقرير التقي السبكي، ونقله غير واحد ،وفي " تفسير الثعالبي " عن ابن رشد، أنه قال في " البيان" : الدعاء عبادة من العبادات، يؤجر فيها الأجر العظيم، أجيبت دعوته فيما دعا به أم لم تجب [3]" .

المطلب الثالث :موقف الشيخ من التفسير اللغوي ونماذج عنه :

يبدوا جليا موقف الشيخ مبارك الميلي من التفسير اللغوي للقرءان الكريم حال شرحه لمعنى الشهادتين ، حيث يرجع سبب تخلف المسلمين وتراجعهم عن ما كانوا عليه إلى قصور العلماء في بيان المعاني الحقيقية للمسائل الشرعية على وفق ما تحملها ألفاظ العربية ، وأن الفرق بيننا وبين سلفنا فهمهم العربية على أصولها مما جعلهم يفقهون الخطاب القرءاني فكان شركهم وليد عناد لا فهم ، بينما العكس عندنا في زماننا ، فحرص على ضرورة الحفاظ على المفهوم الصحيح للفظ القرءاني أو المصطلح القرءاني ، يقول رحمه الله في بيان معنى الشهادتين : " وكثير من علمائنا اليوم– بله عوامنا– لم يفقهوا من العربية ما كان يفقهه أولئك الذين كانت اللغة لغتهم والأسلوب أسلوبهم، ولهذا؛ لم يقتلع التلفظ بالشهادتين من قلوبهم

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 270 .

[2] – رواه الترمذي : 3371 .

[3] –رسالة الشرك ومظاهره : 254–255 .

عقائد الشرك، ولا حال دون نفوذه إليها؛ فتجد أحدهم يردد في صلاته : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، حتى إذا سلم منها، ونهض، استعان بغير الله قائلًا :يا جدي! يا شيخي! يا رجال الداله؛ نساءه ورجاله!! فلانحطاط عقولهم، وفساد أذواقهم العربية، يجمعون بين المتناقضات ، فإن كان فرق بين الفريقين من صرحاء المشركين ومشركي المسلمين، فهو إقدام أهل الجاهلية الحديثة على الجمع بين المتنافيات، وإحجام أهل الجاهلية المعاصرة للبعثة عن هذا الهذيان الذي لا يعقل ، ولا ينفع أهل جاهليتنا تسميتهم مسلمين؛ كما لم ينفع أولئك تسميتهم بالحنفاء، والإسلام لا يفرق بين العقائد المتشابهة والأعمال المتماثلة لمجرد الافتراق في الأوصاف الظاهرة والألقاب الاصطلاحية المسلوخة عن معناها الصحيح " [1].

ويبين الشيخ مبارك الميلي من خلال شرحه للقاعدة الأصولية " الحكم على الشيء فرع تصوره" أن بيان المعنى الحقيقي للألفاظ القرءانية هو ما يوصل للتصور السليم للظواهر ومنه الحكم عليها ، وعليه وجب العناية بتحرير المعنى لغة وشرعا ،فيقول : "كلامنا في الفصل الخامس عن الشرك من ناحية ذرائعه وطبائعه يدخل في باب الحكم عليه، وحديثنا عنه الآن من جهة معناه وأقسامه يعد من قبيل التصور، والحكماء يقولون :الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فمقتضى هذه القاعدة تأخير الفصل الخامس عن هذا الفصل، ولكنا سلكنا هذا الترتيب، لأن التصور الذي ينبني عنه الحكم ويتوقف عليه هو الشعور بأصل معنى الشيء، وهذا القدر من معنى الشرك حاصل للمسلمين، ولهذا ينفرون منه، بل يكاد تصور الشرك يكون ضرورياً لكل ناطق بالعربية، ولذلك لم تعن كتب متن اللغة بتحديد معناه كما اعتنت بضبط ألفاظه، والتصور الذي نحاوله هنا هو تحرير معنى اللفظة لغة وشرعاً، وضبطها نطقاً ووضعاً، وهو بالعلم أنسب، وكلامنا في الفصل الخامس إلى الوعظ أقرب؛ فآثرنا تقديم الوعظ الذي هو خطاب للقلوب على العلم الذي هو حديث إلى العقول! لأنني أرى مصيبة هذا الجيل في قلوبهم أعظم من مصيبتهم في عقولهم [2]" .

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 60-61 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 97 .

وعلى الرغم من أن كتاب الشيخ مبارك الميلي كتاب في فن العقيدة إلا أن مادته العلمية ثرية بالمعاني اللغوية ، ذلك أن الشيخ مبارك الميلي كان يرجع المسائل إلى أصليهما اللغوي والشرعي وهو ما يعبر عنه في مقدمته لكل موضوعات الكتاب ، فيبدأ الباب بقوله " تحرير المسألة لغة وشرعا [1]" .

ويتجلى اهتمام الشيخ مبارك الميلي بالتفسير اللغوي للقرءان من خلال :

أولا : بيان المعاني اللغوية للفظ القرءانية : فيحرص على ضبط معاني الكلمات في اللغة ويوازن بين المعنى اللغوي والشرعي وكذا الاستعمال اللغوي والاستعمال القرءاني ، من ذلك مثلا قوله في معنى الشرك بين اللغة والقرءان : " ولفظ الشرك من الألفاظ المشتركة، وقوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف 110) ،محمول على المشركين، وقوله: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (التوَبة: 5) ؛ فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعاً ،هذا كلام الراغب، وقد اشتمل على آيات في استعمال القرآن لمادة الشرك بالمعنى الشرعي، وهي تفصح عن موافقتها لأصل المعنى اللغوي؛ سنة الحقائق الشرعية في انبنائها على الحقائق اللغوية ، وبيان الشرك بالكفر تساهل في المعنى قرَّبه اتحادهما في الحكم ، وقد فرق بينهما أبو هلال العسكري في كتابه " الفروق اللغوية" ، فقال " :الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب، فمنها الشرك بالله، ومنها الجحد للنبوة، ومنها استحلال ما حرم الله، وهو راجع إلى جحد النبوة، وغير ذلك مما يطول الكلام فيه، وأصله التغطية[2] " .

ثانيا : العودة لكلام العرب وأشعارهم : إذ يحرص الشيخ مبارك الميلي على بيان تصاريف العبارات والجانب النحوي منها ، كما يحرص على بيان معاني القرءان انطلاقا مما ورد في كلام العرب وأشعارهم ،ويطنب في ذكر المعاني اللغوية للفظات القرءانية ويكثر النقول عن مصادر اللغة وشواهد العرب ،من ذلك قوله في معنى النسك :" وتقدم عن الجوهري قوله" والتعبد التنسك" ، فلنشرح هذه المادة أيضاً تمكيناً لمعنى العبادة في الذهن .... وفي " الصحاح : " نسكت الشيء: غسلته بالماء وطهرته؛ فهو منسوك ، سمعته من بعض أهل العلم، وأنشد:

وَلَا تُنْبِتُ الْمَرْعَى سِبَاخُ عُرَاعِرٍ ... وَلَوْ نُسِكَتْ بِالْمَاءِ سِتَّةَ أَشْهُرِ [3]" .

---

[1] – ومنه قوله تحرير القول في العبادة لغة و شرعا . ينظر : رسالة الشرك ومظاهره : 131 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 101 ، وينظر كلام العسكري في : الفروق اللغوية : 189 . .

[3] – رسالة الشرك ومظاهره : 133 .

ثانيا : إعطاء ملخص حول مدار المعاني اللغوية للفظة القرءانية ومرادفاتها : فيعطي الشيخ مبارك الميلي في نهاية كل مسألة ما يشبه الملخص التي تدور عليه معاني اللفظة القرءانية ، ومنه قوله في معنى الشرك : " ومرجع مادة الشرك إلى الخلط والضم" ،ثم اجتماع الشركاء في شيء لا يقتضي تساوي أنصبائهم منه، ولا يمنع زيادة قسط على آخر، فموسى يسأل ربه إشراك أخيه له في الرسالة، وقد أجيب سؤله؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: 36]، وضروري أن حظ هارون من الرسالة دون حظ موسى، ولهذا تقول: فلان شريك لغيره في دار أو أرض أو بضاعة، ولو لم يكن له منها إلا معشار العشر، بل الأجير على جزء من الربح كالخماس وعامل القراض شريك لرب المال من غير أن يكون له حظ من الأصل، هذا في الحسيات، ومثله في المعنويات؛ تقول: الأبوان شريكان في طاعة ابنهما لهما، وإن كان حق الأم في الطاعة أقوى، وتقول: أبنائي شركاء في محبتي، وأنت تحب بعضهم أشد من بعض. هذا تقرير معنى الشرك لغة [1] " .

ولا يكتفي الشيخ مبارك الميلي بالبحث في معنى اللفظة القرءانية بل يبحث في ما يقابلها من الألفاظ في الاستعمال القرءاني ،ويعقد مقارنات بين اللفظة وضدها، ويستخرج الفروق بين الاستعمال الشرعي واللغوي ، كمقارنته بين الشرك والكفر في القرءان ، ثم بين المغزى منه فقال : " وفائدة البحث عن مقابل كل من الشرك والكفر زيادة الكشف عن معناهما، وفضل التمكن من تصورهما تصوراً واضحاً ، وكما لا تقتضي الشركة لغة تساوي الشركاء في الحصص؛ لا يقتضي الشرك شرعاً مساواة الشريك لله في جميع صفاته أو في صفة منها، بل يسمى المرء مشركاً عند الشارع بإثباته شريكاً لله، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلاً ، فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(الشعراء: 97 – 98) ، فالتسوية فيه تسوية في الطاعة والانقياد، لا في القدرة على الخلق والإيجاد، فهي كآية البقرة :﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ ﴾ (البقرة: 165) [2]" .

ثالثا: معارضة النقول التفسيرية مع المعاني اللغوية والترجيح بينها : قد يعارض الشيخ مبارك الميلي بعض النقول اللغوية واتجاهات العلماء في تأويلاتهم ،فيرد عليهم بالحجة ، من ذلك رده تأويل العسكري معنى العبادة في اللغة وما فيها من مجاز فقال : "....والطاعة في مجاز اللغة تكون اتباع المدعو الداعي إلى

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 99-100 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره : 102-103 .

ما دعاه إليه، وإن لم يقصد التبع؛ كالإنسان، يكون مطيعاً للشيطان وإن لم يقصد أن يطيعه، ولكنه اتبع دعاءه وإرادته ،ومجاز الطاعة الذي ذكره العسكري لا يختص بها، بل تستعمل فيه العبادة أيضاً، ففي الكتاب العزيز :﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾(يس: 65) ،﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (مريم: 44) [1] " .

رابعا : تعدد مصادره في التفسير اللغوي للقرءان الكريم : وأكثرها كتب اللغة ككتاب الراغب والقاموس و الصحاح للجوهري و المصباح و الفروق للعسكري ، إضافة إلى النقل من كتب التفسير التي تعنى بالجانب اللغوي كتفسير ابن عطية و الطاهر بن عاشور وغيرهم .

ومن أمثلته ما نقله عن الشيخ محمد عبده في تحريه معنى العبادة فيقول : " وترى الشيخ محمد عبده في" تفسير المنار " يتبرم من قصور عبارة المتقدمين عن تحديد معنى العبادة، ويطيل القول في تقرير ذلك القصور، ثم يجهد نفسه في استخراج معناها من تتبع آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب، فإذا هو لا يخرج عند التأمل عن التعريف الذي ذكرنا، ولكن ننقل من كلامه ما يصلح إيضاحاً وافياً لتعريفنا، ونرضى عن طوله لبلاغته وعظم فائدته[2] " .

المطلب الرابع :موقف الشيخ من التفسير الإصلاحي والمقاصدي للقرءان الكريم : لئن تعددت أساليب الشيخ في تفسير الآيات القرءانية فقد غلب المقصد الإصلاحي في مسلك الشيخ مبارك الميلي، وما توظيفه لمناهج التفسير المختلفة إلا لخدمة هذا الغرض ،فأكد وكرر في كتابه على فكرة " الدعوة لإصلاح المجتمع من خلال إصلاح عقيدة الفرد" ،وأصل لفكرة رئيسة تتمثل في أن " صلاح المعتقد لا يكون إلا بإخلاص التوحيد لله عز وجل وتخليص الفرد من كل شوائب الشرك ومظاهره " ، وهو المقصد الأول من القرءان الكريم ، لذلك كانت الدعوة للجانب الإصلاحي والتوظيف المقاصدي للآيات القرءانية من الأساليب التي اعتمدها الشيخ مبارك الميلي في تفسيره للآيات القرءانية ، وصرح بذلك في كثير من المواضع منها :

أولا : موقف الشيخ من أسباب النزول وتنزيل الآيات على الواقع :

---

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 130 .

[2] – رسالة الشرك ومظاهره: 131 .

يحرص الشيخ مبارك الميلي على تعميم الآيات فيمن اتفق فيهم الحكم والاعتبار بعموم ألفاظ القرءان لا بخصوص الأسباب الواردة في الآيات ومنها آيات الشرك ، كما حرص الشيخ على الدعوة لتطبيق هذه الآيات في واقع المسلمين لأجل محاربة هذه الظاهرة ، فنجده مثلا عند رده على قول الطرقيين في أن "ما نزل في قوم مشركين وأهل الكتاب ،فهو خاص بهم لا يتناول المسلمين ،وإن جاءوا بما هو أشنع وأضل " يقول : " وقد تصرف الأئمة في الآيات النازلة في الأمم الماضية واستنبطوا منها أحكاماً لهذه الأمة [1]".

ثم يقول : " مساواة هذه الأمة لمن قبلها في حكم السنن الإلهية : إن ما وقع فيه العرب ومن قبلهم يقع فيه غيرهم بعدهم إذا ما جهلوا مثلهم أصول الدين وبالغوا في التبرك بالصالحين؛ فإن الله يقول: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح: 23) ، وعلماء الاجتماع يقولون : "التاريخ يعيد نفسه" ،والمتكلمون يحكمون بأن "ما جرى على المثل يجري على المماثل " ، فإذا كان مجموع المسلمين قد انتهوا في الدين إلى جهالة المشركين؛ فمحاولة تبرئتهم من الشرك غش وتضليل، وجحد للشريعة وتعطيل " .

ثم بين الحكمة من تعميم الآيات على غير من نزلت فيهم فقال: " إن تنزيل الآيات النازلة فيمن قبلنا على أهل ديننا هو تطبيق للنص على الحادثة، ونصيحة للمؤمنين أن لا يغتروا بالنعوت اللفظية، ويدعوا الصفات النفسانية التي هي أصل تلك النعوت ؛ فلا يفيد المرء أن ينعت بالمسلم وصفاته النفسانية صفات مشرك ضال أو كتابي معاند ،وقد وضع العلماء قاعدتين في هذا الباب :

إحداهما : قولهم " :العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب."

والثانية :هي " شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ " .

وقد شرع الله لمن قبلنا عقائد وأعمالًا أنكر عليهم مخالفتها، ولم يرد ناسخ يعفينا من ذلك الإنكار عند وقوع المخالفة منا، وكثيراً ما نجد في عبارات المفسرين أن الآية نزلت في بني إسرائيل مثلًا، وأنها متناولة من كان على مثل حالهم من هذه الأمة، مثل آية الكاتمين للعلم ولعنهم، ومثل آية :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ (البقرة: 44) [2]" .

ثانيا :إعمال النظرة المقاصدية والهدائية للآيات القرءانية :

---

[1] - ص : 79 .

[2] - ص : 80- 81 .

فيحرص الشيخ على بيان الجانب الهدائي للآيات القرءانية ويبين مقاصد القرءان الكلية ،من ذلك مثلا بيانه أن أهم مقصد في القرءان الكريم هو توحيد الله تعالى، وأن الآيات اجتمعت على هذا المعنى ، وعليه اتحدت دعوة الأنبياء جميعهم ،فيقول : " إن القرآن العظيم يقص علينا في جلاء ووضوح أن أول ما يدعو إليه الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم أجمعين هو توحيد الله، وأول ما ينكرونه على قومهم الشرك ومظاهره، وعلى حكم هذه السنة الرشيدة جاءت بعثة خاتم النبيين – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فعنيت بالدعوة إلى التوحيد، والتحرز من الشرك، والتحذير منه، وما ذلك إلا لشدة الحاجة إلى معرفته، وإنك لتجد تلك العناية ظاهرة في الكتاب وأطوار البعثة وأركان الدين [1]" .

ثم يبين عناية السور ببيان هذا المقصد فيقول : " ولا تكاد تخلو سورة من هذا الحديث، ولا تكاد تجد غيره في سور كثيرة، وأول ما نزل الآيات الخمس الأول من سورة العلق؛ فلم تخل من الإشارة إلى التوحيد، والتعريض بالوثنية؛ للأمر فيها بالقراءة باسم الرب، والتذكير بنعمه في الخلق والتعليم، وآخر ما نزل آية المائدة في إكمال الدين ؛ فسدّت باب الابتداع ، ومن أسلوبه الحكيم :جمعه في دعوته بين بيان التوحيد ومزاياه وإيضاح الشرك ودناياه، وبضدها تتميز الأشياء [2]" .

ويرى في دعوى الصوفية لصرف الآيات عن الواقع واقتصارها على ما تقدم من الأزمنة ،قصور نظر في حكم الله في أوامره ومقصود كلامه ، يقول الشيخ مبارك الميلي ردا عليهم :" وهذا جهل بمقصود البعثة وحكمة التكليف وتصرف الأئمة في تفقههم؛ فإن الغرض من بعثة كل نبي هو توحيد الخلق على توحيد الخالق وإقامة دينه، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(الشورى: 13)[3] " .

كما يعرض المقصد الهدائي من التكاليف الشرعية في الآيات القرءانية فيقول : " وحكمة التكليف هو تكميل الإنسان باتباعه شريعة الملك الديان، وليس الأمر كما يظنه بعض الجهال من أن التكليف كجزية تضرب على العبيد من الملك، ويعفى منها من توسل إليه بمنزلة وجاه، فتراهم يفخرون بكونهم من خير أمة أخرجت للناس، أويعتزون بالاعتزاء إلى مشهور بالفضل والصلاح، من غير أن يأتمروا بينهم بمعروف،

---

[1] – ص : 46 .

[2] – ص : 46 -47 .

[3] – ص : 79 .

أو يتناهوا عن منكر، وقد قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(الملك: 2) ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات: 13) [1]" .

دعوته التجديد في التفسير وتفعيله بين الناس : من ذلك اعتراض الشيخ مبارك الميلي على أسلوب المتكلمين في عرض عقائد الإسلام ، وذلك أن أسلوبهم صرف الناس عن مقصود القرءان وشغلهم بالجزئيات عن الكليات ، كما دعى المسلمين لتجديد التفسير والعودة إلى عرض العقيدة بأسلوب القرءان فقال : " وعني علماء الكلام ببيان عقائد الإسلام، وسلكوا في التدليل عليها سبيل المنطق اليوناني، ثم جمد المتأخرون على هذا الأسلوب، وحادوا عن بيان القرآن؛ فخفي على الناس ما هو شرك أو سبب إليه وقد قال الشيخ السنوسي في " شرح صغراه " معللًا وجه ذكر الصفات الواجبة والمستحيلة على التفصيل ما نصه " :لأنه لو استغني فيها بالعام عن الخاص، وبالملزوم عن اللازم، لكان ذلك ذريعة إلى جهل كثير منها، لخفاء اللوازم، وعسر إدخال الجزئيات تحت كلياتها، وخطر الجهل في هذا العلم عظيم؛ فينبغي الاعتناء فيه بمزيد الإيضاح على قدر الإمكان، والاحتياط البليغ؛ لتحلية القلوب بيواقيت الإيمان[2] " .

ودعى الشيخ مبارك الميلي لإحياء التفسير وإعادة ربط الناس بمفاهيم القرءان الكريم الصحيحة بألفاظه البسيطة ، واعتبر أن من أسباب انحراف الأمة وتخلفها غياب المفهوم القرءاني عن عموم الناس، من ذلك مثلا قوله في معنى الولي : " تحيل الشيطان لإحياء ما أماته القرآن: وكل أنواع ضلال المشركين قد تعددت فيها آيات القرآن، وتنوعت لها أساليبه، فكشفتها كل الكشف، ووصفت أدواءها غاية الوصف، وأبانت وجه الحق فيها أبلغ إبانة، وأعانت على سلوك الكمال لمن وُفِّق إليه أنفع إعانة، فولى الشرك إذ ذاك الأدبار، واختفى أيام ظهور القرآن عن الأبصار، فأصبح اسمه من أنصاره بالأمس مهجوراً، ولم يبق في مظاهره بالاحترام مذكوراً ، فلما اختفت عنا معاني القرآن؛ خلع عليه الشيطان ما شاء من ألوان، وقدمه لنا بعناوين أخر، غرت من لم يكن تحت راية القرآن والأثر، فقبلوا آثاره دون اسمه، ولم يهتم إبليس للنفار من اسمه بعد حياة رسمه، وتمثل الشرك لهذه الحال بقول من قال:

---

[1] – ص: 79 .

[2] – ص : 49 –50 .

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا ... فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ[1] " .

الخاتمة : في ختام البحث نخلص إلى جملة من النتائج أهمها :

1. اعتنى الشيخ مبارك الميلي بالتفسير عناية بالغة ،وأعمل شتى أنواع التفسير في كتابه رسالة الشرك ومظاهره .
2. للشيخ مبارك الميلي آراء وردود في التفسير ضمنها بعض المعاني التفسيرية في كتابه .
3. تنوعت مناهج الشيخ مبارك الميلي في التفسير بين التفسير بالرأي و المأثور واللغة .
4. حرص الشيخ مبارك الميلي على التثبت في المرويات ومعارضة الأقوال والنقد والترجيح للنقول التفسيرية .
5. دعوة الشيخ مبارك الميلي للتجديد والعودة بالتفسير إلى بيان المعاني التفسيرية وتخليصه من الآراء الكلامية .
6. من أهم سبل الإصلاح وتحقيق مقاصد القرءان العودة بالأمة للفهم الصحيح للقرءان .
7. أهم مقاصد القرءان الكريم مقصد التوحيد وعليه مدار الآيات القرءانية وله اتحدت دعاوى الأنبياء جميعهم .

[1] – رسالة الشرك ومظاهره : 142 .

قائمة المصادر والمراجع :

1. آثار الإمام البشير الإبراهيمي : أحمد طالب الإبراهيمي : ط1، دار الغرب الإسلامي ، 1997 .
2. أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1921 إلى عام 1975م : محمد علي الدبور ،ط1 ، مطبعة البعث ، 1978 م .
3. تاريخ الجزائر الثقافي : أبو القاسم سعد الله ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998م .
4. تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك بم محمد الميلي : ت : محمد الميلي ، دط ، المؤسسة الوطنية للكتاب .
5. التحرير والتنوير :محمد الطاهر بن عاشور : الدار التونسية للنشر ، 1984 م .
6. تفسير القرءان العظيم : إسماعيل بن كثير : ت : محمد حسين شمس الدين : ط1 ، دار الكتب العلمية ، 1419هـ .
7. التفسير والمفسرون : محمد السيد حسين الذهبي : مكتبة وهبة ، القاهرة .
8. جامع البيان عن تأويل القرءان : ابن جرير الطبري : ت: عبد الله عبد المحسن التركي ، ط1 ، دار هجر للطباعة للنشر والتوزيع ، 1422هـ/2001 م .
9. الجامع لأحكام القرءان : محمد بن أحمد القرطبي : ت : أحمد البردوني : ط2 ، دار الكتب المصرية ، 1384هـ/1964 م .
10. دروس الشيخ مبارك بن محمد الميلي في التفسير في رحلاته إلى المدن الجزائرية – توثيقا وتوصيفا وتحليلا : مراد خنيش : ، مجلة الشهاب : المجلد 8 ، العدد 01 (2022) .
11. رسالة الشرك ومظاهره :مبارك بن محمد الميلي : ت : حسن بن داود بوقليل : ط1 ، دار الفضيلة ، الجزائر ، 1440هـ/2019 م .
12. الفروق اللغوية : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري : ت : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة ، القاهرة .
13. فصول في أصول التفسير : مساعد بن سليمان الطيار : ط2 ، دار ابن الجوزي ، 1423 هـ .
14. مفاتيح الغيب : الفخر الرازي : ط3 ، دار إحياء التراث ، 1420 هـ .
15. مقدمة في أصول التفسير :تقي الدين بن تيمية : دار مكتبة الحياة بيروت ، 1490هـ/ 1980 م.